د. عليّ محمَّد أبو العِزِّ

إشْراقَةُ أمَلٍ..

كُلَّما مَرَّ شَهرٌ واستُقبِلَ آخرُ، أخذَ النَّاسُ يُعلِّقونَ عليه الآمالَ والأماني، ولولا الآمالُ؛ لتَسمَّرَ الواحدُ منَّا في مكانه، ولتَعطَّلَ دُولابُ حياته عن الدَّوران، ولجفَّتْ ينابيعُ السَّعادةِ في قلبِه؛ فالمكروبُ تتراقصُ رُوحُهُ فرحاً كلَّما جَالَ بخاطره الأملُ بانفراجِ كُربتِه، والمريضُ تغمُرُهُ البَهْجةُ إذا أحَسَّ ببارقةِ أمَلٍ في الشِّفاء، والفقير يُحيطُهُ السُّرورُ إذا لاحَ لهُ بَصيصُ أمَلٍ في زوالِ ضائقتِه، والغائبُ تَستولي عليه الفرحَةُ كلَّما تنسَّمَ نَسمةَ الأمل باقترابِ لقائه أحبَّتَهُ؛ بحيثُ يبدو الواحدُ من هؤلاء وكأنَّهُ مُصابٌ بـ (انفصام الشَّخصيَّة)؛ فحينما يَنظُرُ إلى حاله وواقعه؛ يعْبِسُ وجْهُهُ، ويقطُرُ كآبةً وتعاسةً، وحينما يتمكَّنُ الأملُ في وجْدانه؛ تَصحُو همَّتُهُ، وتمتلئُ نفسُهُ حيويَّةً ونشاطاً، وتذوبُ طَبَقةُ العُبوسِ الَّتي تَجلَّتْ على وجْهِه؛ لترتسِمَ على تَقاسيمِه ملامحُ النَّضارة، ذلكَ هو الأملُ الَّذي يُغذِّي شَجَرةَ الحياةِ؛ لتَستَوي على سُوقِها، والَّذي يَقطَعُ خيطَ اليأس، ويُطفئُ جَذوةَ القُنوط، ويُذلِّلُ كُلَّ صَعبٍ، ويُهوِّنُ كُلَّ خَطْب.

والأملُ شُعبَةٌ من شُعَبِ الإيمان؛ لأنَّهُ الطَّريقُ إلى حُسنِ الظَّنِ باللهِ تعالى، ومن هُنا قسَّمَ العُلَماءُ (الظَّنَّ) إلى قسمين: مَحظور، وواجب؛ فأمَّا المحظورُ: فهو سُوءُ الظَّنِ باللهِ، وأمَّا الواجبُ: فهُوَ حُسْنُ الظَّنِ باللهِ، وجاءتْ في هذا السِّياقِ أحاديثُ صَحيحَةٌ، منها: يَقولُ اللهُ تعالى في الحديثِ القُدُسيِّ الَّذي أخرجَهُ البُخاريُّ: «أنا عندَ ظَنِّ عَبْدي بي»، وفي صَحيحِ مُسلمٍ عَن جابرٍ قَالَ: سَمِعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ قَبْلَ مَوتِه بثلاثةِ أيَّامٍ يَقولُ: «لا يَموتَنَّ أحدُكُمْ إلاّ وهُوَ يُحسِنُ الظَّنَّ باللهِ».

الأملُ هُو الدِّرعُ الَّذي يُواجِهُ بهِ المؤمنُ جَميعَ المَصائِبِ، ويَتلقَّاها بِصَدرٍ رَحْبٍ كـ (السوست) يَمتَصُّ الصَّدَمات

ويَجعلُها خَفيفَةَ الوطأةِ، وكـ(الصَّخْرَةِ الصُّلْبَةِ) الَّتي لا يُزحزحُها اليأسُ، ولا يَميدُ بها الإحباطُ.

وها هُوَ يَعقوبُ عليه السَّلامُ يُعلِّمُنا دَرساً بَليغاً في الأمل؛ ذلكَ أنَّهُ لمَّا طالَ حُزنُهُ، واشتدَّ بلاؤُهُ، وعَظُمَت محنتُهُ، عَلِمَ أنَّ اللهَ سيَجعَلُ لَهُ فَرَجًا ومَخرَجًا قريبَين؛ فقالَ على سبيلِ حُسنِ الظَّنِّ باللهِ: عَسَى اللهُ أن يَأتِيَني بهِمْ جَميعًا، وقالَ: يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ؛ فجَعَلَ اليأسَ مُقتصراً على الكافرينَ؛ لأنَّ الَّذي يَيأسُ من رَحمةِ الله، وفَضلِه، وفَرَجِه؛ كأنَّهُ لا يَعترفُ للهِ بالقُدرةِ المُطلَقَة، ولا يُقِرُّ لَهُ بالمَشيئَةِ النَّافذةِ القَادِرَةِ على تَبديلِ الأحوال، وكَأنَّ وجْدَانَهُ أصبحَ لا يَشعُرُ بأنَّهُ يستَنِدُ في شدائدِ الحياةِ وكُرُباتها إلى رُكنٍ شديد، وإله مَجيد، ومن هُنا كانَ رَسولُنا مُحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُحبُّ التَّفاؤُلَ، ويَكرَهُ التَّشاؤمَ؛ لأنَّ التَّفاؤلَ من حُسنِ الظَّنِّ باللهِ، والتَّشاؤمَ من سُوءِ الظَّنِّ باللهِ، والاتِّكالَ على شيءٍ سواه، وكيفَ لا نُحسنُ الظَّنَّ بربِّنا، ونأمَلُ بكَرمِه، وجُودِه، ورحمته، ورأفتِهِ؟! وما تعوَّدنا منهُ - جَلَّ ثناؤُهُ - إلاّ الإحسانُ، ولَم يُسدِ إلينا إلاّ المِنَنَ،

فكَمْ مِنْ محْنَةٍ وَجَدنَا في طيِّها منْحَةً.. وكَمْ منْ دُنُوٍّ أعقَبَهُ عُلُوٌّ.. وكَمْ منْ نقمَةٍ في بَاطنها نعمَةٌ.. وكَمْ مَضَرَّةٍ تُخبِّئُ مَسرَّةً.. وكَمْ منْ مَريضٍ نَجا.. ومَاتَ طَبيبُهُ، وكَمْ في نَوائبِ الزَّمانِ منْ فرحَةٍ مَطويَّةٍ، وكَمْ منْ عَسيرٍ رَافَقهُ يَسيرٌ.. واللهُ يَعلَمُ وأنتُم لا تَعلَمون.

المؤمنُ الَّذي يتَّصلُ برُوحِ الله، ويَتَعلَّقُ بحَبْلِه، ويَتَشرَّبُ قَلْبُهُ حُسنَ الظَّنِّ به، إنسانٌ مُشرِقٌ بكُلِّ كيانه، آمالُهُ فَسيحَةٌ، طَريقُهُ سَهلَةٌ، لا يَخشى الفقرَ؛ لأنَّ لهُ ربٌّ اسمُهُ (الغَنيُّ) يُخلِفُ عليه، ولا يرتعِبُ من جَورِ الظَّلَمَة؛ لأنَّ لهُ إلهٌ اسمُهُ (القهَّار) يَنتقِمُ لَهُ، المؤمنُ لا تُجزِعُهُ نوائبُ اللَّيلِ والنَّهار، ولا يُضجِرُهُ ضيقُ العَيش، ونَكَدُ الحياة، ولا تُثبِّطُ عَزيمَتَهُ الخُطوبُ والكروبُ؛ بَل يَزدادُ صُموداً وإقداماً؛ لأنَّ بَريقَ الأمَلِ يَلوحُ دوماً أمامَ ناظِريه، وَما أضيَقَ الحياةَ لولا فُسحَةُ الأمَلِ.

ولا يَخفى على القارئِ اللبيبِ أنَّهُ ليسَ المرادُ منَ الإطراءِ على الأمَلِ الرُّكونَ إليه، والخُلودَ إلى الأحلامِ الزَّائفَة؛ فذلكَ يُورثُ الفشَلَ، وخَيبةَ الأمَلِ؛ وإنَّما الأمَلُ الَّذي نُريدُهُ أنْ يكونَ صَادقَ الرَّغْبَة، يَقظَ الضَّمير، قويَّ العَزيمة، عاليَ الهمَّة، رائدَ النَّهْضَة، حاضراً في كُلِّ خير، غائباً مَفقوداً في كُلِّ شرٍّ، مفتاحًا لكُلِّ مَعروف، مِغلاقًا لكُلِّ مُنكَر.

بهذه الطَّاقَةِ الإيجابيَّة يَنشطُ المجتمَعُ من عقَاله، ويُطلِقُ زمَامُه، وتُحَلُّ عُقَدُهُ، وعلى رأسها العُقدَةُ الاقتصاديَّةُ، ويَصلُ إلى أرقى دَرَجاتِ الرُّقيِّ والكَمال.

الأملُ في اللهِ كبيرٌ، أنْ يُوفِّقَ اللهُ المُخلصينَ والمُخْلَصينَ للسَيرِ قُدُماً إلى أرقى مَا وَصلَت إليه الحضَاراتُ المتقدِّمَةُ، والكَمالاتُ الإنسانيَّةُ، وليسَ هناكَ من شَيءٍ يَستنهضُ الهمَمَ، ويَشحَذُ العَزائمَ على البَذلِ والعطاء، والكَدِّ والعَمل، مثلُ (القُوَّة، والأمانة، والمعرفة، والاستقامَة)؛ فبهذه المعاييرِ والقيَمِ نَستطيعُ أنْ نُحَوِّلَ الصَّحراءَ الجَرداءَ إلى واحةٍ خَضراءَ، وبها نَبلُغُ آمالَنا وأمانينا، ونَحيا في راحَةٍ وهَناء.

الأمَلُ في اللهِ وَثيقٌ بأنْ تَزولَ مَظاهرُ الفقر، ويَتراجعَ مُؤشِّرُ البَطالَة، وتَنطفئَ المَديُونيَّةُ، ويَشتَدَّ عَضُدُ الميزانيَّة، ويَتبخَّرَ الفَسادُ المَاليُّ والإداريُّ، وتَختفي جَميعُ الأمراضِ الاقتصاديَّة، والعِلَلِ الاجتماعيَّة.

أمَلُنا أنْ نَكونَ على الدَّوامِ يَداً واحدةً، وأنْ تكونَ أهدافُنا وغاياتُنا واحدةً، ومَقصَدُنا مُتَّحداً، نَسعى إليه، ونَعمَلَ على تحصيله، ما استَطعنا إلى ذلكَ سَبيلاً.

أمَلُنا أنْ لا يَنتقِلَ إلينا داءُ الأُمَمِ السَّابقةِ الَّذي أبادَها وأفْناها، وهوَ داءُ (التَّفرُّق)، وإذا كانَ النَّجاحُ مَعَ اتِّحادِ الكلمَة، واجتماعِ الشَّملِ غيرَ مَضمون، فهو مَعَ تَمزُّقِ الصَّفِّ، وتَضاربِ الكلمة، مُستحيلٌ.

الأيَّامُ القادمَةُ فرصَةٌ سانحَةٌ للإصلاح الشَّامل، فلا تَترُكْها تَمرُّ مَرَّ السَّحاب من غيرِ انتفاعٍ بها؛ فإنَّكَ إنْ لَم تَغتَنِمها عَادَت عَليكَ غُصَّةً.

قُلْ هذِه سَبيلي أدْعوا إلى اللهِ على بَصيرَةٍ والحَمدُ للهِ ربِّ العَالَمينَ.